

الخطاب النقدي الجزائري ومؤشرات توظيف المنهج التاريخي -أبو القاسم سعد الله أنموذجًا-

The Algerian Critical Discourse and Indicators of Employing the Historical Curriculum -Abu al-Qasim Saadallah as a model-

نور الدين مخفي*

جامعة حسيبة بن بوعلي بالشلف، (الجزائر)، n.mokhfi@univ-chlef.dz

مخبر تعليمية اللغات وتحليل الخطاب-كلية الآداب والفنون بجامعة الشلف

د. امحمد سحواج

جامعة حسيبة بن بوعلي بالشلف، (الجزائر)، m.sahouadj@univ-chlef.dz

مخبر تعليمية اللغات وتحليل الخطاب-كلية الآداب والفنون بجامعة الشلف

تاريخ الارسال 2022/07/21 تاريخ القبول 2022/09/06 تاريخ النشر 2022/09/23

ملخص:

إنّ المنجز النقدي الحديث لا يزال دائماً نحو الامتداد والتنامي، محاولاً استيعاب الروافد الثقافية ومرجعياتها، وتوظيف ما يستدعيه التأسيس العلمي وما يستلزمه التعقيد المنهجي لنظرياته. والنقد الجزائري؛ بوصفه رؤية نصّية للخطاب الأدبي لم يتجاوز هذه النهضة المعرفية وتداعياتها، بل وقف على مسلكٍ دقيقٍ جداً بين تجاذبات الثقافة الغربية وإفرازاتها وحدود الفكر العربي وحرّمته. فمثّل ذلك حافزاً لتأصيل نظريات مُستجدة ترصد الظاهرة اللغوية وجماليّتها، ومُنْعَطَفاً حاسماً يَسْتَوْجِبُ تطوير آلياته وتطويعها بالشكل الذي يليق بِمُحْصُوصِيَةِ الخطاب الفني.

وإنّا لا ننكر فاعلية التكريس النقدي الجزائري إزاء هذه المسألة؛ في تبني مختلف التيارات الوافدة والاتجاهات النقدية المستحدثة، مُتَوَحِّجاً بذلك العلمية والموضوعية. وتأسيساً على هذا التّصوّر فإنّنا نستهدف تلخيص إشكالية تلقي النقد التاريخي في الوسط الجزائري واتخذنا الناقد أبو القاسم سعد الله كأنموذج لهاته المعايينة.

الكلمات المتاحة: النقد الجزائري؛ أبو القاسم سعد الله؛ المنهج التاريخي؛ الثقافة الغربية؛ نقد النقد.

Abstract:

The modernist critical achievement is still continually expanding and growing, trying to assimilate the cultural tributaries and their references, and to employ what is required by scientific foundation and by the systematic relegation of its theories. Algerian criticism; As a textual vision of literary discourse, he did not go beyond this cognitive renaissance and its repercussions, but rather stood on a very precise course between the interactions of Western culture and its secretions and the limits and sanctity of Arab thought. This represented a catalyst for the establishment of emerging theories that monitor the linguistic phenomenon and its aesthetics, and a decisive turning point that requires developing its mechanisms and adapting them in a manner befitting the peculiarity of literary discourse.

We do not deny the effectiveness of the Algerian monetary devotion to this issue; In adopting the various incoming currents and the new monetary trends, aiming at the scientific and objective. Based on this perception, we aim to summarize the problem of receiving historical criticism in the Algerian community, and we have taken the critic Abu al-Qasim Saadallah as a model for this examination.

Keywords: Algerian criticism; Abu al-Qasim Saadallah; historical method; Western culture; criticism of criticism.

1. مقدمة:

إنَّ التحريَّ النقدي للخطاب الأدبيّ؛ يسعى بالدرجة الأولى إلى تصعيد القيم الجمالية وإبراز المتعاليات الفنية، من خلال استثمار ما تحتويه البنى اللغوية وارتباطاتها السياقية، باعتبار أنَّ مُعَاينة أيّ خطاب تقتضي مراعاة حدوده الثقافية ووقائع تكوينه، كي لا تكون المقاربة أداةً تجرّيدٍ وهتكٍ لخصوصيّته. وتبعًا لهذا؛ فإنَّ القراءة من هذا النوع، تفرضُ - إجرائيًا - الإحاطة السياقية لوشائجه والرؤية الجمالية لسماته. ذلك، أنَّ القراءة الفاحصة لدلائل النصّ مُتعاضدة مع حيثياته النصّية ومُعطيّاته الفنيّة.

وتكمن قيمة هذه الاتجاهات بما تشخصه من معايير وبما تثبته من حقائق حول متغايّراته وإشكالاته وصولاً لمكوناته، والخطاب النقدي الجزائري كغيره من الممارسات العلميّة حاول أن يتّبع مستجدّات الحداثة ويواكب مختلف مساراتها، ناهيك عن محاولة الاطلاع على مفاهيمها وخلفياتها الإستيمولوجية.

وسعيًا منّا على تلخيص الوعي النقدي لدى النقاد الجزائريين فإنّنا نستهدف مُتابعة الإشكال التّالي: ما مدى نجاعة النّقد التاريخي في استنطاق جمالية الخطاب الأدبي؟ وامتثالاً لهذا المنطلق فإنّنا نبتغي مُجابهة إشكالية توظيف المنهج التاريخي ومدى استثمار آلياته في الواقع النقدي الجزائري، وبالتحديد من منظور الباحث أبو القاسم سعد الله.

2. النّقد التاريخي؛ التّلقي والماهية:

بادئ ذي بدء نُذكّر؛ بمقولة بول ريكور Paul Ricoeur إزاء هاته الإشكالية: " أنَّ الكتابة شريحة من الحياة قبل أن تُهاجر بها الحياة إلى الكتابة،"¹ ما يُدلي بنا إلى الحُكم؛ أنّه لا يُمكن البتّة من استئصال الأدب عن تاريخه، فقلّمًا نُلفي خطابًا يتجرّد من جذره التاريخي. والخطاب النقدي العربي قد حفل في السّنوات الأخيرة في القرن العشرين بكثير من المناهج والتيارات الغربية الوافدة نتيجة لانفتاحه على الثقافات العالمية المختلفة، ولم تكن المعرفة الإنسانيّة حكرًا على حضارة دون أخرى، وظاهرة التّلاقح والتّمازج ضرورة حتمية للثقافة العربيّة بشرط عدم الارتواء كليّة في أحضان تلك الثقافات.²

وعلى متن هاته الدّراسة نحاول طرح هذه النّظريّة من منظور وصفي تحليلي يُلمّلم بعضًا من تلك المحاولات التي أسهمت بدورها في إثراء الدّراسات السياقية لدى العرب، لكن ما يجدر بنا أن ننوه به أنَّ المنهج التاريخي

يقوم "على الصلة الوثيقة بين الأدب والتاريخ، فأدب أمة من الأمم يعدُّ تعبيراً صادفاً عن حياتها السياسية والاجتماعية، ومصدراً مهذباً من مصادرها التاريخية ذلك أنَّ الأدب يلهم بروح الحوادث والأطوار المتعاقبة فيصوِّرها ثمَّ يتأثر بها فيستحيل في موضوعاته وفنونه تبعاً لما تستدعي الأحداث وتقتضي به الشؤون الجارية.³

وأما عن تاريخ بروز المنهج التاريخي في النقد العربي "فيمكن أن تكون نهايات الربع الأول من القرن العشرين، تاريخاً ل بدايات الممارسة النقدية التاريخية، على يد نقاد تتلمذوا _ بشكل أو بآخر _ على رموز المدرسة الفرنسية، يتزعمهم الدكتور أحمد ضيف (1880- 1945) الذي يمكن عدّه أول متخرج عربي في مدرسة لانسون الفرنسية؛ فهو أول أستاذ للأدب العربي أوفدته الجامعة المصرية الأهلية للحصول على الدكتوراه من جامعة باريس.⁴

وقد أشار السيد قطب أن «أول مؤلف سلك هذا المنهج سلوكاً حقيقياً فهو الدكتور طه حسين في كتابه الأول "ذكرى أبي العلاء"، وفي كتبه الأخرى بعد ذلك، ثم الدكتور أحمد أمين في كتبه "فجر الإسلام"، و"ضحى الإسلام"، و"ظهر الإسلام"، ثم في كتابه مع الدكتور زكي نجيب محمود "قصة الأدب في العالم" والأستاذ طه أحمد إبراهيم في كتابه تاريخ النقد عند العرب، والدكتور محمد خلف الله في بحثين صغيرين له عن "التيارات الفكرية التي أثرت في دراسة الأدب" و"نظرية عبد القاهر في أسرار البلاغة" والدكتور عبد الوهاب عزام في "المتنبي" وكتاب الأستاذ العقاد "شعراء مصر في الجيل الماضي"⁵

حيث كانت دراسة طه حسين لأبي العلاء دراسة للظروف والأسباب التي ولدت شعره، وتأثير هذه الظروف في بناءه، فهي دراسة لعصره بذكر الشعوب التي امتزج بها والتقلبات السياسية، والاجتماعية، والاقتصادية، في هذا العصر وتأثير الأدب فيه.

وفي النقد العربي الجزائري، اتبع محمد ناصر المنهج التاريخي في دراسته للظاهرة الأدبية، ومن ذلك دراسته للشعر الجزائري في كتابه "الشعر الجزائري الحديث اتجاهاته وخصائصه الفنية 1925-1975م"⁶ حدّد من خلاله محمد ناصر الفترة الزمنية المدروسة، من 1925 إلى 1975م، كما ركّز على الظروف والمؤثرات التي ساهمت في تطوّر الشعر، وعلى هذا الأساس قسّمه إلى شعر تقليدي محافظ والذي ربطه بتأثير الحركة الإصلاحية، والشعر الوجداني الرومانسي متأثراً بالتيار الرومانسي العربي والاتجاه الجديد وهو ما يطلق عليه الشعر الحر أو شعر التفعيلة⁷ حتى أن يوسف وغليسي يعتبر هذا الكتاب نموذجاً من أرقى مستويات التعامل التاريخي مع الظاهرة الأدبية.⁸

وعلى ضوء المنهج التاريخي سار صالح خرفي في دراسته للشعر الجزائري الحديث في كتابه "الشعر الجزائري الحديث"، فكان أول ما قام به هو تحديد الفترة الزمنية للبحث وانطلق من سنة 1930م رابطاً تأثير الأحداث التاريخية الكبرى على الشعر كنهاية الحرب العالمية الأولى، ومرور قرن من الاحتلال الفرنسي للجزائر "فقد استعان بالتاريخ في فهم النصوص وموقعها منه"⁹ كما ركّز على دور البيئة في فهم النصوص وتطوُّرها فيقول: «إنَّ دراسة الطبيعة وإلقاء الضوء على البيئة كمدخل لدراسة ظاهرة أدبية فكرية، لا يساعد على فهم النصّ بحدى من

ملاساته وظروفه فحسب، بل يساعد أيضاً على تتبّع الجذور العميقة للنبتة الأدبية وطبيعة الأرض التي انشقت منها»¹⁰.

كما يعدّ عبد الله الركيبي من أبرز النقاد الجزائريين الذين وظفوا المنهج التاريخي في دراساتهم للأدب، وتجلّى ذلك في كتابه الشعر الديني الجزائري الحديث، وقد صرّح في كتابه دراسات في الشعر العربي الجزائري الحديث أنّه مزج بين النقد والتاريخ والدّرس، وقد عمد للتاريخ لأجل أن يوضّح الفرق بين شعر مرحلة والأخرى، كما يظهر هذا المنهج في تعرّضه للعوامل التي ساهمت في تطوّر الشعر والأحداث التي مرّت بالشعر الجزائري، بالإضافة إلى دراسة الحياة السياسية والفكرية، وتأثيرها على الشعراء الجزائريين.

فوزّع كتابه إلى أربعة فصول: استهلّ الفصل الأوّل بشعر الانطواء؛ بيّن في هذا الفصل كيف أثّرت البيئة الاستعمارية على الشعر والشعراء، فأدّى ذلك إلى صحافة أسلوبه وركاكة تعبيره، وخلخلة نسيجه، وخمود روحه، وفجور عاطفته، وهذا جزاء انطواء الشعراء الجزائريين.

أمّا الفصل الثاني عنونَ بشعر الدّعوة: بيّن في هذا الفصل أهمّ التطوّرات السياسية وأهمّ الحركات الإصلاحية التي أثّرت إيجابياً بالنّهوض بالشعر الجزائري، كما تعرّض إلى أهمّ الأحداث التي أثّرت في الشاعر محمد العيد آل خليفة لنظّم القصائد.

في حين أنّ الفصل الثالث وسمه بشعر اليقظة: بدأ هذا الفصل بالحديث عن أحداث 08 ماي، واعتبر هذا الحدث بداية مرحلة جديدة في حياة الشعب، وفي حياة الشعر والفكر، وتحدّث عن تأثير هذه الأحداث في الشاعر الرّبيع بوشامة.

بيد أنّ الفصل الرابع تمحور حول شعر الثورة؛ تحدّث في هذا الفصل عن أهمّ حدث تاريخي، ألا وهو أول نوفمبر 1954م، وتأثير هذا الحدث على الشعر الجزائري، فانصبّ اهتمام الشعراء بالثورة، والتّغني بنوفمبر، والتّغني بالانتصارات مستعرضاً أهمّ القصائد التي صدرت في هذه الفترة، ويعطي أحياناً تاريخ صدور بعض القصائد. وكما ذكر في بداية كتابه فقد كان يبيّن الفرق في شعر كلّ مرحلة من هذه المراحل، وتأثير البيئة والحياة السياسية على تطوّر الشعر.

وفي كتابه تطوّر النثر الجزائري الحديث، صرح عبد الله الركيبي في مقدمة هذا الكتاب بالمنهج الذي اعتمده في هذه الدّراسة بقوله "فاخترت المنهج الذي يجمع بين النقد والتّاريخ، فالتّاريخ ليس مقصوداً لذاته وإنّما هو لبيان خط تطوّر القصّة ومسارها العام، وكيف تطوّرت وما هي الأشكال التي ظهرت فيها؛ لأنّ الأدب يتطوّر بتطوّر حياة الإنسان، والتّاريخ يساعد على تحديد مراحل هذا التطوّر"¹¹ فهو بذلك يفصح عن المنهج الذي اعتمده في دراسته، كما أنّه بين أهمية هذا المنهج.

يبدأ عبد الله الركيبي دراسته للقصّة القصيرة منذ ظهورها مروراً بتطوّرها، والخلفيّة التاريخية والوضعيّة الاجتماعية والأسباب التي أخّرت ظهورها قياساً بظهورها في المشرق العربي، حيث قال: "نتيجة وضع خاص

وظروف عرفتھا الجزائر دون غيرها من الأقطار العربيّة، وقد أحاطت هذه الطّروف بالثقافة العربية في الجزائر".¹² وقد أجمّلھا الناقد فيما يلي:¹³

- الوضع الاستعماري الذي عاشته الجزائر، وقد كان هدفه القضاء على الهوية الجزائرية.
- تأخّر النهضة الثقافية في الجزائر إلى ما بعد الحرب العالمية الأولى.
- الانعزال الثقافي والحصار العلمي الذي فرضه الاستعمار الفرنسي.
- اضطهاد اللغة العربية الوطنية، حتى أوشكت أن تصبح لغة أجنبية.
- ارتباط الحياة الأدبية بالشعر.

وبعدھا ينتقل عبد الله الركيبي إلى بداية ظهور القصّة في شكلها الفنّي، ويتقصّي تطوّرھا، بدءاً من المقال القصصي، والصّورة القصصية، إلى القصّة الفنّية، في ظلّ تغيّر الطّروف الاجتماعية، والمعايير الأدبية التي أحاطت بتلك الوقائع.

كذلك يتجلّى المنهج التاريخي في دراسات عبد الملك مرتاض، من ذلك كتابه "أدب المقاومة الوطنية في الجزائر 1830-1962م"¹⁴ فيصرّح في مقدّمة الكتاب بأنّه تناول هذا الموضوع بالمزاوجة بين التاريخ والأدب¹⁵ فقد حدّد الفترة الزّمنية للبحث بتاريخين مهمين: الأول؛ دخول فرنسا إلى الجزائر وبداية المقاومة الجزائرية، والثاني؛ استقلال الجزائر، وفي هذه الفترة تحدّث عن الحياة العامّة في الجزائر في مختلف النواحي، السياسية، والاجتماعية، والفكرية، بيّن تأثير الأحداث التاريخية على الأدب من جهة وتأثير الأدب على الحياة العامّة من جهة أخرى، كما قام بتحليل بعض النماذج الشعرية وصور المقاومة فيها، كشعر الأمير عبد القادر، وشعر الطيب بالمختار، بالإضافة إلى شعر محمد العيد آل خليفة، وشعر مفدي زكريا، وتفسير الخصائص الفنّية لهذه الأشعار، كما تعرّض للصّراع السياسي بين 1920-1954م، وتأثير ذلك على الأدب بصفة عامّة، بالإضافة إلى كتابه "فنون النثر الأدبي في الجزائر 1931-1954م"¹⁶ الذي تعامل فيه والمادة المدروسة وفق المنهج التاريخي.

ومن النماذج الأخرى التي تهتدي بمعطيات المنهج التاريخي دراسات الدكتور عبد الله بن عمادي، التي كثيراً ما تنأى عن النقد الأدبي وتقترّب من التاريخ وتاريخ الأدب، تلمس ذلك في كتابه "مدخل إلى الشعر الإسباني المعاصر" وكتاب "شعر الثورة عند مفدي زكريا للأستاذ يحيى الشيخ صالح"،¹⁷ وكتاب "تطور الشعر الجزائري منذ سنة 1954م حتّى سنة 1980م" للأستاذ الوناس شعباني، وكتاب "الشخصية في الرواية الجزائرية" للأستاذ بشير بويجرة.¹⁸

وبالنّظر إلى متن الدّراسات -المذكورة آنفاً- يُستَبَيّن أنّ العلاقة القائمة بين الأدب والتّاريخ "علاقة مُتبادلة ووثقى، كلّ منهما عونٌ للآخر وسلاحٌ من أسلحته، وإذا جهلنا التاريخ فإنّنا سوف نشوّه معنى النصّ حتّى"¹⁹ واستناداً لما ورد فإنّ الناقد التاريخي يستعين بمواثيق التاريخ، والنّظم السائدة لاستنطاق مضمّرات النصّ؛

وهاته النظرة إلى النص تُفصِّحُ إجمالاً أنَّ الخطاب ليس بناءً فنيًا موحَّدًا مُنغلقًا على نفسه مستقلًا بذاته، وإنَّما هو بنية منفتحة مُتداخلة الأنساق ومُتضافرة الأبعاد.

وهذا ما يُعمِّقُ فهمنا أكثر لمقولة ديفيد بشبندر Dafudbchfndr: "أنَّ القصيدة ليست مجرد حقيقة أدبيّة، ولكنّها حقيقة اجتماعيّة، أيضًا، أيّ إنّ القصيدة تُنتج في سياق يتضمَّن حياة المؤلّف والمتلقّي الذي تُكتب له، وعلاقات مُختلفة العوامل الاجتماعيّة والتاريخيّة والسياسيّة التي تمثّل الخلفيّة، ومن ثمّ تقع القصيدة في شبكة الظروف حين يُنتجها الشاعر وحين يتلقّاها القارئ، وتشملُ هذه الظروف مجموعة العلاقات بين الشاعر والمتلقّي، والسيّاق الاجتماعيّ، والطبيعة السياسيّة والإيديولوجية لهم ووضعهم في تتبع الأحداث التي تدعى التاريخ، فوجود هذه العلاقات في القصيدة—حتّى لو فهمناه باعتباره مجرد نسق ضمنيّ—يُثير عددًا من القضايا التي تُعالجها نظريّات الأدب المتنوّعة بطرق مختلفة...²⁰ وهكذا فإنّ النقد التاريخي يفرض علينا النظر إلى الحقائق المحيطة بسيّاج النصّ لأثما جزءً من معناه، أو بالأحرى هي جسر واصلٌ لمقاصده.

3. مشروع النقد التاريخي لدى أبي القاسم سعد الله وحدود التلقّي:

إنّ الاستبصار المعرفي الذي تُنيرُهُ المقاربات النقديّة حول النصّ يُحمِّلنا على الجزم؛ بأنّ وعيًا إبستمولوجيا ينبثق من صلب الحداثة ومحمولاتها، ما يسوقنا إلى التنبُّؤ بجماليّاته والتكهّن ببعض قيمه المعرفيّة وأبعاده الدلالية. "والحداثة كمشروعٍ زئبقي فإنّه مفتوح دائمًا على كلّ الاحتمالات والرؤى والجدليّات، وهو قابلٌ لِلخلق، والتّجديد والابتكار، ومادام فنّ الأدب هو فنّ جمالي؛ فإنّ درجة رقيّه الإبداعيّ تتحدّد بمُستوى جدّته وبقارته التي يسمو فيها عبر فضائه التّخيّليّة وآفاقه الرّؤيوية الخصبّة واستبصاره بحيثيات إبداعيّة جديدة على مستوى الشّكل والمضمون ما كانت لتفتقّ على هذه الدّرجة من التّجاوز والالتذاذ في تحقيق المتعة في الشّكل الفنّي الجذّاب، والمضمون الإيحائيّ الخصب²¹، ومُعانة الخطابات الأدبيّة يُدلّل؛ أنّ ثمة قيمًا جديدة نلحظها في كلّ عمل فنّي تكادُ لا تجتمع في عمل آخر، وهذا يُدلّل أنّ لكلّ نصّ قيمه الجماليّة المميّزة، هي التي تُحدّد مقصديّته ومرجعيتّه الإبداعيّة.²²

وحسب تقديرنا فإنّ النقد التاريخي —وعلى رُغم ما أخذ عنه— إلّا أنّه يسعى في جُلِّ محاولاته إلى كشف جماليّات الملمح المميّز على مستوى القول الفنّي من خلال الوقائع التي أسهمت في تشكيله وبنائه، وفَقَّ رؤية مُنهجة، وتثمينًا لما أثار به النّاقِد أبو القاسم سعد الله في مصاف الدّراسات النقديّة فإنّا نسعى إلى تلخيص أبرز تجاربه، التي تُحيل إلى مؤشّرات توظيف المنهج التاريخي، كالآتي:

1.3. كتاب شاعر الجزائر محمد العيد آل خليفة:

قسّم سعد الله كتابه هذا إلى ثلاثة أقسام:

تعرّض في القسم الأوّل إلى حياته من خلاله بيئته في مجالها السياسي والاجتماعي والثقافي، وتأثّر بهذا كلّهُ، بالإضافة إلى نشأته وتأثير البيئة فيها، وآراءه وتجاربه ومواقفه اتجاه الظروف التي تمرّ بها البلاد²³، وخصّص القسم

الثاني لشعره الذي قسّمه إلى مرحلتين نسبة إلى الحرب العالمية الثانية، الرحلة الأولى قبل الحرب، والمرحلة الثانية من الحرب إلى الثورة، وصنّفه إلى : شعر اجتماعي، سياسي، ذاتي، مجاملات، الحياة العربية في شعره، آسيا وإفريقيا في شعره، بعد ذلك تعرّض إلى خصائصه الفنية، وبيّن مواطن القدم والجدة في هذا الشعر²⁴، وفي القسم الثالث أعطى نماذج من شعره مراعيًا فيها التنوّع وتحدد الموضوعات، وقد وضع لكلّ نموذج تاريخ نظمته أو نشره، حتّى يُتابع القارئ المهتم تطوّر حياة الشاعر الفنية.²⁵

في هذا الكتاب ركّز أبو القاسم سعد الله على البيئة والزمان والمكان لمحمد العيد، واتّخذ من هذه العناصر بوابة يلج من خلالها شعره، فكان يربط كلّ قصيدة واقعة تاريخياً أو مناسبة قيلت فيها، ليتسنى له فهمها وإبراز خصائصها وموضوعها ليتّمت تصنيفها.

وعن اختيار النّقد التاريخي، أشار أبو القاسم سعد الله في مقدمة الطّبعة الأولى للكتاب إلى استعارته لمخطوط ديوان محمد العيد من البشير الإبراهيمي بقوله: «استعرت النسخة المخطوط منه وعكفت مدّة على دراستها وربطها بالأحداث والمناسبات التي قيلت فيها، وتتبع تطوّر الشاعر خلال تجربته الشعرية الطويلة، ووضعت في الميزان مع رفقاءه من الشعراء، وفي الإصلاح، وفي السياسة. وخرجت بعد كلّ هذه الدّراسة التي لا تعدو أن تكون جولة في ديوان، وانفعلاً بأحداث، ورأياً في تجربة إنسان شاعر»²⁶، هذا وقد فسّر يوسف وغليسي استعارة أبو القاسم سعد الله لمخطوط الديوان من البشير الإبراهيمي، على أنّها دلالة لانصياح سعد الله للنّقد التاريخي، فضلاً عن أنّ جل أقسام الدّراسة تركّز على التفاصيل التاريخية لحياة الشاعر وعصره وموضوعات شعره في ارتباطها بالمناسبة التاريخية التي قيلت فيها.²⁷

يلاحظ على هذه الدّراسة أنّها "تقتصر في حق الدّراسة الفنية التي لا تهبها إلّا حوالي 18 صفحة من البحث كلّ (2013 – 2030) تشير إلى بعض الخصائص الفنية بأصابع الاصطلاح البلاغيّ القدام (الاقتباس، التكرار، البديع، لزوم ما لا يلزم، ...) ملتزمة بالخصائص الموضوعية (وحدة الموضوع، المناسبة، ...)".²⁸ ولعلّ السبب في ذلك راجع إلى ميول أبي القاسم سعد الله إلى التّاريخ للأدب أكثر منه للنّقد الأدبي، كما أنّ النّقد التاريخي يفرض على الدّارس الاهتمام بالأديب، من حيث نشأته وحياته، وثقافته، كما لا نغفل أنّ هذا الكتاب هو من أولى التجارب النّقدية ذات الطّابع المنهجي في الجزائر، مع ذلك كلّ قد وفق سعد الله إلى حدّ بعيد في تطبيق إجراءات النّقد التاريخي في دراسته لمحمد العيد آل خليفة، هذه الدّراسة التي أصبحت من أهم المصادر التي تنثري النّقد الأدبي الجزائري.

2.3. كتاب دراسات في الأدب الجزائري الحديث: تظهر إجراءات المنهج التاريخي واضحة في كتابه "دراسات في الأدب الجزائري الحديث" حيث تعرّض في كتابه هذه إلى الأدب الجزائري مؤثراته وتياراته، فربط هذا الأدب بالأحداث التاريخية والسياسية التي مرّت بها الجزائر، أمّا عن المؤثرات فاكتفى بثلاثة: المؤثر العربي (الشرقي)، والمؤثر الوطني، والمؤثر الغربي، وبيّن العلاقة بين الأدب والبيئة، والتغيّر في الأحداث، إذ يقول: "هذه هي أهم

المؤثرات وأشدّها تعميقاً لحركة الأدب في الجزائر، وقد اختصرنا سردها اختصاراً نرجو أن يكون مضيئاً لفكرة العلاقة بين الأدب وبين دوافعه الأصلية، التي أعطته، نسغ الحياة، وحددت له تياراته التقليدية أو الرومانتيكية، أو الواقعية".²⁹

وفي دراسته للشعر فقد قام "بتقسيمه حسب الفترات التي يكثر فيها الاصطراع الشعبي وتندافع أثناءها الأمواج الوطنية في أشكال مختلفة، ومن الممكن أن يكون هذا التصميم على النحو التالي:

1- شعر المنابر من أواخر القرن 19م إلى 1925م.

2- شعر الأجراس 1925م - 1936م.

3- شعر البناء 1936م - 1945م.

4- شعر الهدف 1945م - 1954م.

5- شعر الثورة 1954م".³⁰

وقد ذكر أنّه تناول الشعر على هذا النحو الذي يقوم على تتبع الحوادث التاريخية ومدى تأثيرها في الشعر. وفي دراسته لرضا حوحو فقد ركّز على حياته من خلال نشأته وثقافته وتعليمه بالإضافة إلى رحلاته وتأثير ذلك كلّ في بناء شخصيته التي كانت ميّالة إلى التطوير والتجديد، كما تعرّض إلى دوره في حركة الأدب، وربط ذلك بمراحل تطوّر النثر في الجزائر، وكان في كلّ مرحلة يذكر الأحداث التاريخية ويبيّن تأثيرها على هذا النثر، ثمّ يأتي في الأخير إلى دراسة ميزات فنّه، ووصف أسلوبه "بالساخر والكاريكاتيري"³¹ بالإضافة إلى ظاهرة الحوار.

وعلى المنوال نفسه، متتبّعاً خطوات المنهج التاريخي تطرّق إلى كُتّاب الجزائر بالفرنسية "محمد ديب، كاتب ياسين، إدريس الشرايبي"³²، من خلال حياتهم وتأثير البيئة في بناء شخصياتهم وتأثير ذلك كلّ على أدبهم. وبالحديث عن المستقيات والمراجع التي اعتمدها في دراسة الأدب لقد لخصّها في قوله: "فكما أنّ المؤرّخ بالأمس يرجع إلى المذكرات والأشعار وكُتب التراجم ونحو ذلك من المواد التاريخية، كذلك يستلزم تاريخ اليوم مساهمة جميع العناصر المنتجة ثقافياً كمذكرات رجال الدولة، والمناضلين القدماء في الحركة الوطنية، العسكريين والصحافيين والكُتّاب وأساتذة العلوم الاقتصادية والسياسية والاجتماعية وأضرابهم، ذلك أنّ أعمال هؤلاء جميعاً ستصبح ذات يوم مادة تاريخية هامة".³³

فأبو القاسم سعد الله لا يترك مصنفاً ولا كتاباً ولا مخطوطاً ولا مقالاً في جريدة... إلخ إلا استعان به للوقوف على جميع جوانب الظاهرة الأدبية، والإلمام بظروفها التاريخية التي ولّدها. كما يبيّن أبو القاسم سعد الله الأسباب التي دفعته إلى كتابة التاريخ عموماً وتطبيق المنهج التاريخي في دراسة الأدب الجزائري ويظهر ذلك في قوله: "إنّ بعض الناس يكتب التاريخ من وجهة نظر حزبية وبعضهم يكتبه بمنظار الطّرقية، وبعضهم يكتبه بلون الحركة الإصلاحية، وبعضهم يكتبه في ضوء الإيديولوجيات العالمية... وأودّ أن أقول هنا بأنّي، في اعتقادي، لست من هؤلاء ولا من أولئك. والمؤرّخ الحق، في نظري، هو الذي يفرّق بين ميوله الشخصية ومهمّته الوطنية والقومية

والإنسانية... ذلك أن تاريخنا العربي والإسلامي، والجزائري على الخصوص مليء بالخرافات الغليظة التي لا يقبلها العقل ولا العلم ولا نظرية التّقدّم في أوسع معانيها³⁴ وهنا تظهر موضوعية أبا القاسم سعد الله في تعامله مع المادّة العلمية، وبعده عن أهوائه وميوله الدّاتي، كما تظهر أمانته العلميّة، وهذا ما يُكسبه احتراماً وتقديراً في المجال التّقدي.

4. خاتمة:

بعد هذا العرض الذي تناول مؤشرات المنهج التّاريخي عند أبي القاسم سعد الله، توصل البحث إلى جملة من النتائج، هي كالآتي:

- يقوم المنهج التّاريخي على الصّلة الوثيقة بين الأدب والتّاريخ، فأدب أمة من الأمم يعدّ تعبيراً صادقاً عن حياتها السّياسية والاجتماعية، ومصدراً مهذباً من مصادرها التّاريخية ذلك أنّ الأدب يلمّ بروح الحوادث والأطوار المتعاقبة فيصوّرها ثمّ يتأثّر بها فيستحيل في موضوعاته وفنونه تبعاً لما تستدعي الأحداث وتقتضي به الشّؤون الجارية
- ظهر المنهج التّاريخي في السّاحة التّقديّة العربيّة في الرّبع الأوّل من القرن العشرين، على يد نقاد تلمذوا بشكل أو بآخر، على رموز المدرسة الفرنسيّة، أمثال: أحمد ضيف، وطه حسين، وأحمد أمين، و نجيب محمود، وغيرهم.
- وفي النقد الجزائري، اتّبع عدد من النّقاد المنهج التّاريخي في دراسته للطّاهرة الأدبية، ومنهم: محمد ناصر وعبد الله الرّكبي وأبو القاسم سعد الله، وعبد الملك مرتاض.
- درس أبو القاسم سعد الله الشعر الجزائري الحديث وقف المنهج التّاريخي، فقسّم الشعر إلى أقسام، وحدّد الفترة التّاريخية لكلّ، وسمّى كل قسم بما رآه يتناسب مع مواضيع شعر كل فترة، فكانت هذه الدّراسة أولى تجاربه التّنظيرية في النقد الجزائري.
- أمّا في كتابه " شاعر الجزائر محمد العيد آل خليفة" الذي اعتبره النّقاد الجزائريين باكورة النّقد الجزائري الحديث، فقد اعتمد الكاتب في الدّراسة على تطبيق المنهج التّاريخي، وحاول تطبيق ثلاثية تين (البيئة، العرق، الزمن)، فقسّم دراسته إلى ثلاثة أقسام هي: القسم الأوّل: حياته، والقسم الثّاني: شعر، والقسم الثّالث: نماذج من شعر
- وإجمالاً نخلص؛ أنّ الأدب ليس خطاباً مُكتفياً بذاته، وبالتالي فإنّنا لا يمكن استيعابه ومساءلته أو التّعصّق في أنساقه البنائية ومضمراته النصّية من دون ربطه بالعوامل التي أسهمت في تشكيله، واستحضار حقائق تكوينه ودوافع إنتاجه، ومُحاولة استبعاد البعد التّاريخي هو بتر لمعناه وتخريف لمقاصده.

5. الهوامش:

- ¹ مخلوف عامر، مناهج نقدية - محاضرات ميسرة، منشورات الوطن، دط، الجزائر، 2017م، ص10
- ² أيوب جرجيس العطية، الأسلوبية في النقد العربي المعاصر، عالم الكتب، ط1، الأردن، 2014م، ص12
- ³ أحمد الشايب، أصول النقد الأدبي، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ط10، 1994م، ص93-94.
- ⁴ يوسف وغيليس، مناهج النقد الأدبي الحديث، مرجع سابق، ص18-19.
- ⁵ سيد قطب، النقد الأدبي أصوله ومناهجه، دار الشروق، القاهرة، ط8، 2003، ص186.
- ⁶ محمد ناصر، الشعر الجزائري الحديث اتجاهاته وخصائصه الفنية 1925-1975م، دراسات المغرب الإسلامي، بيروت، ط2، 2006.
- ⁷ ينظر: المرجع نفسه، ص8-9.
- ⁸ يوسف وغيليس، النقد الجزائري المعاصر من اللانسونية إلى الألسنية، رابطة إبداع الثقافية، الجزائر، ص27-28.
- ⁹ صالح خري، الشعر الجزائري الحديث، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، د.ط، 1984م، ص8.
- ¹⁰ نفسه، ص6.
- ¹¹ عبد الله الركيبي، تطوّر النشر الجزائري الحديث، دار الكتاب العربي، الجزائر، د.ط، د.ت، ص9.
- ¹² عبد الله الركيبي، القصة الجزائرية القصيرة، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، د.ط، 1983م، ص10.
- ¹³ ينظر: المصدر نفسه، ص10.
- ¹⁴ عبد الملك مرتاض، أدب المقاومة الوطنية في الجزائر 1830-1962م، ج1، دار هومة، الجزائر، 2009م.
- ¹⁵ ينظر: المرجع نفسه، ص3.
- ¹⁶ عبد الملك مرتاض، "فنون النشر الأدبي في الجزائر 1931-1954م، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1983م.
- ¹⁷ ينظر: يوسف وغيليس: النقد الجزائري المعاصر من اللانسونية إلى الألسنية، ص32.
- ¹⁸ ينظر: نفسه، ص33.
- ¹⁹ وليد قصاب، مناهج النقد الأدبي الحديث، دار الفكر، ط02، دمشق، 2007م، ص24
- ²⁰ المرجع نفسه، نقلاً عن: ديفيد بشبندر، نظرية الأدب المعاصر وقراءة الشعر، تر: عبد المقصود عبد الكريم، ص121.
- ²¹ عصام شرتج، النقد الجمالي، بين سلطة النصّ وسلطة المتلقّي، دار الخليج، ط2، عمان، 2018، ص14.
- ²² ينظر: المرجع نفسه، ص14.
- ²³ ينظر: أبو القاسم سعد الله، شاعر الجزائر محمد العيد آل خليفة، دار الرائد للكتاب، الجزائر، ط5، 2007، ص19.
- ²⁴ ينظر: نفسه.
- ²⁵ ينظر: نفسه.
- ²⁶ نفسه.
- ²⁷ ينظر: يوسف وغيليس، النقد الجزائري المعاصر من اللانسونية إلى الألسنية، مرجع سابق ص23.
- ²⁸ نفسه، ص23.
- ²⁹ أبو القاسم سعد الله، دراسات في الأدب الجزائري الحديث، دار الرائد للكتاب، الجزائر، ط5، 2007م، ص26.
- ³⁰ نفسه، ص35-36.
- ³¹ أبو القاسم سعد الله، دراسات في الأدب الجزائري الحديث، مصدر سابق، ص93.
- ³² نفسه، ص95.
- ³³ أبو القاسم سعد الله، أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر، ج2، دار البصائر، الجزائر، د ط، 2007م، ص8-9.
- ³⁴ ينظر: المصدر نفسه، ص5-6.

6. قائمة المصادر والمراجع:

- 1- أبو القاسم سعد الله، شاعر الجزائر محمد العيد آل خليفة، دار الرائد للكتاب، الجزائر، ط5، 2007م.
- 2- أبو القاسم سعد الله، دراسات في الأدب الجزائري الحديث، دار الرائد للكتاب، الجزائر، ط5، 2007م.
- 3- أبو القاسم سعد الله، أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر، ج2، دار البصائر، الجزائر، دط، 2007م.
- 4- أحمد الشايب، أصول النقد الأدبي، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ط10، 1994م.
- 5- أيوب جرجيس العطية، الأسلوبية في النقد العربي المعاصر، عالم الكتب، ط1، الأردن، 2014م.
- 6- ديفيد بشبندر، نظرية الأدب المعاصر وقراءة الشعر، تر؛ عبد المقصود عبد الكريم.
- 7- سيد قطب، النقد الأدبي أصوله ومناهجه، دار الشروق، القاهرة، ط8، 2003.
- 8- صالح خرفي، الشعر الجزائري الحديث، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، دط، 1984م.
- 9- عبد الله الركيبي، تطوّر النثر الجزائري الحديث، دار الكتاب العربي، الجزائر، دط، د.ت.
- 10- عبد الله الركيبي، القصة الجزائرية القصيرة، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، دط، 1983م.
- 11- عبد الملك مرتاض، "فنون النثر الأدبي في الجزائر 1931-1954م، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1983م.
- 12- عبد الملك مرتاض، أدب المقاومة الوطنية في الجزائر 1830-1962م، ج1، دار هومة، الجزائر، 2009م.
- 13- عصام شرتح، النقد الجمالي، بين سلطة النصّ وسلطة المتلقّي، دار الخليج، ط2، عمان، 2018.
- 14- محمد ناصر، الشعر الجزائري الحديث اتجاهاته وخصائصه الفنيّة 1925-1975م، دراسات المغرب الإسلامي، بيروت، ط2، 2006.
- 15- مخلوف عامر، مناهج نقدية - محاضرات ميسرة، منشورات الوطن، دط، الجزائر، 2017م.
- 16- وليد قصاب، مناهج النقد الأدبي الحديث، دار الفكر، ط02، دمشق، 2007م.
- 17- يوسف وغليسي، النقد الجزائري المعاصر من اللانسونية إلى الألسنية، رابطة إبداع الثقافية، الجزائر.